

تلاقى الحس الفني والذوق العرفاني في الشعر الصوفي

The confluence of artistic sense and gnostic taste in Sufi poetry

بارش ريمة*

تاريخ النشر: 2021/12/31

تاريخ القبول: 2021/11/24

تاريخ الاستلام: 2021/06/17

ملخص:

ترتكز هذه الدراسة في محاولة تقريب امكانية تلاقى القول الديني بالعمل الفني الجمالي ، الذي لمسناه في الشعر الصوفي ، أو كما عرف قديما بشعر التدين ، من خلال ايضاح كيفية تداخل التجربة الصوفية كإحدى طرق العبادة والسير الى الله ، مع حالة الطرب والشجون الشعري ؛ أي في كيفية التعبير عن مقامات تلك الحالة الروحية الباطنية – كحالة التجلي والحب والكشف – بلغة المجاز والرمز . فرحلة المقام يعايشها الصوفي بطريقة فنية جمالية ، متذوقا فيها الجمال الحقاني الذي يستثير الروح حبا ، فيأتي القول واللفظ شعرا.

كلمات مفتاحية: الشعر الصوفي ، القول الديني ، العمل الفني الجمالي ، حالة التجلي ، اللغة الرمزية

Abstract:

This study is based on attempt to converging the religious the saying with the aesthetic artistic work,wich we saw in sufi poetry, or as i twas knowe in the past as religious poetry , through clarification how the mystic experiece as one of the ways of worship and walking to god overlaps with the state of raptue and the poetic chagrine, that is, in how to express the stations of that inner spiritual state - such as the state of manifestation , love and revelation- in the language of metaphor and symbole . the journey of the shrines is lived by the mystic in an aesthetic artistic way, tasting the true beauty that evokes the soul with love, so the words and the pronunciation come as poetry .

key words: Poetry sophie, Words religion, Artist esthetic work, Manifeste case, Symbolization language

1. مقدمة:

يعد علم التصوف او الخطاب الصوفي احدى اهم الدراسات المعرفية التي لقيت اهتماما واسعا في ميادين متنوعة ابرزها الادب و الفلسفة ، بحثا وشرحا وتأويلا ، اين كان ضمن انشغالات الذهنية العربية الاسلامية بخاصة ، كونه يستمد اصوله ومركزاته من شرائع مقدسة ، فكان لدين الاسلام الاثر العميق فيه . هذا ولقد انحصر تواجد هذه التجربة الذوقية المعاشة ضمن ممارسات دينية روحية بالأساس مبتغاها التنزه عن عالم المحسوسات وملذات الحياة ، وذلك بجعل النفس ترتقى معها الى حقائق نورانية ، الا وهي التواصل والتجاور مع الحق المطلق .لتتداخل هذه التجربة الشعورية الذاتية في جوانب كثيرة مع العمل الفني ، نظرا لما يحوزه هذا الاخير من مكان حديسية جوانية تستثير مقاصد العاطفة وبشدة كونه نابع من عالم الوجدان ، فمن خلاله تركيبته استطاع وبكل تمثالاته - الرسم ، الشعر ، الغناء، النحت ... - ، التعبير عن بواعث النفس وحوائجها ، لتتشابه خصائصه ومساعيه مع حاجات الطرق الصوفية كونه هو الآخر يحاكي عالمه الذاتي . فعبر هذا المجال اراد ان يستعين الصوفي بنموذج الفن ليحاكي بكيفيتها عن كل ما يتأجج في دواخله من فتوحات حقانية و كشوفات ربانية ، فحق له ان صنع من الشعر لغة خاصة به . لتلتقى التجربة الدينية بالحس الفني ضمن ما بات معلنا عنه اليوم بالشعر الصوفي، فكان من بين احد اهم المسالك المعبرة للأحوال الباطنية لتجارب المتصوفة ، كحالة الحب والوصل والوجد والنشوة التي يعيشها الصوفي مع خالقه .

ومنه ؛ ضمن هذه السياقات المعرفية التي نأتي بها الى طرح الاشكالات التالية : اي شعر خصته المتصوفة لتعبير عن احوالها ومقاماتها ؟ فيما تتمثل وتتحدد معالم الالتقاء بين النزعة العرفانية والتجربة الفنية للشعر الصوفي ؟ هل استطاعت اللغة الشعرية لغة العلامات والإشارات الافصاح عن فيوض الحب الالهي ومدركات الذات وما يختلجها من احساس ومشاعر روحانية ؟

2. في قراءة مفهومية للشعر الصوفي

1.2 تعريف التصوف:

بات من الضروري قبل الشروع في تحليل اي بحث او دراسة ، ادراج مدخل مفاهيمي تأسيسي تتضح ومعه الرؤية بصورة اولية حول الفكرة المراد شرحها و استكناه حقيقتها ، بإبراز تمثالاتها اللغوية ولاصطلاحية ، نزيل معها الغموض والإبهام المحاط بها ولو بشكل يسير حتى تتبين لنا القراءة والفهم بشكل ادق . وعليه ، وقبل التطرق الى تعريف الشعر الصوفي نوجز اولا مفهومة عامة للتصوف . كون ان مدار الاشتغال يتركز عليه بالأساس

فماذا يقصد بالتصوف او الخطاب الصوفي ؟.

ورد في موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي لرفيق العجم ، معنى التصوف بصور عديدة منها : " ان كلمة صوفية مشتقة من كلمة الصفاء ، لان الصوفي من خاصة لله الذين طهر قلوبهم من

كدورات الحياة ، كما قيل فيها ايضا ان اشتقاقها من الصف الواحد ، لان الصوفي من حيث حياته الروحية ، في الصف الاول لاتصاله بالله ، وقيل ايضا انه من الصفة . لان الصوفي تابع لاهل الصفة ، وهو اسم اطلق على جماعة من اصحاب رسول الله ، وقيل انه من الصوف ، لان الصوفي كالصوف المطروحة في الهواء لا تدبير لها ، ولان لباس الانبياء والأصفياء كان من الصوف " . (العجم، 1999، صفحة 556)، لتكون هذه المعاني المذكورة في اطار اصلها الاشتقاقي اللغوي ، التي اخذت منها كلمة التصوف ، وان اختلفت صياغتها بحيث لم تتفق الآراء حول ادراج اصلها ونسبها ، الى مصدر ثابت .

أما ما تعلق بمضمونها الاصطلاحي فلقد تعددت وتنوعت ايضا التعريفات حولها منها : " ان التصوف هو جهاد النفس في سبيل الله لأجل معرفته ، وإدخال النفس تحت الاوامر الالهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا لشيء اخر من غير سبيل الله " . (بركات، دن، صفحة 55) .

جهاد النفس الذي يكون عن طريق كثرة العبادة والخلوة والذكر والتدبير ، بالامتثال لكل ما يرضي الله واجتناب نواهيه ، اي ؛ " حسن رعاية الله في الاعمال الظاهرة و الباطنة ، بالوقوف عند حدوده مراقبا خفايا القلب " . (سلامة، دن، صفحة 4). ومنه التصوف كما يقول الجرجاني هو صفاء المعاملة مع الله ، التصوف أخلاق " تخلق بأخلاق الله " (العجم، 1999، صفحة 557) ، كونه حقيقة إيثار وتضحية " التضحية بكل ملذات الحياة ومتعها بالعاجل الدنيوي ، والإيثار بما هو باق على ما هو فان ، لكل ما هو مؤجل اخروي ، وذلك بواسطة مجاهدة النفس ومغالبة الاهواء " . (مرسلي، 2015، صفحة 9). ضمن هذه الرياضة الروحية التي تستدعي ضرورة مغالبة النفس ، والخروج التام من مشاغل الدنيا وزخارفها بالتخلي عنها طوعا ، والانصراف كلية الى الواحد الاحد ، لتتحقق معه حالة الوصل والفناء ، فالتصوف في نظر السالك " ان تكون مع الله بلا علاقة " (الكندي، 2010، صفحة 53).

لنقف من هذه التعاريف الى مفهوم شامل نراه يتفق لما ذكر انفا، على ان " التصوف معراج روحي له اطوار تراتبية تتحقق تباعا بواسطة كثرة العبادة ، والتمسك بالزهد ، والتخلي بالاخلاق الحسنة لتكون الغاية التي يتوخاها هذا المعراج هو الاستغناء بالله عن سواه ، ليتحقق الى مايسميه المتصوفة حالة الصحو او وحدة الشهود " . (المرجع نفسه)

هذا القول الذي ومنه نصل به الى الغاية والهدف والمبتغي ، الذي يحترزه الصوفي وراء ممارساته الروحية والسلوكية ، الا وهو الوصول الى الحق المطلق عن طريق الاتصال بالذات الاقدس ومشاهدته وذلك بالتفاني في حبه الى درجة يسقط عندها التكليف بين المحب والمحبوب (حسين، 2017، صفحة 17) .

فظاهرة التصوف وان سالت المفاهيم حوله لم يخرج من دائرة الالتزام بمقتضيات العبودية لله بإخلاص النوايا التامة له دون قيد او تكلف ، ليكون بذلك في خدمة الدين ومقاصده ، ساعيا الى تحقيقها بكيفية تخالف العادية منها ما يشمل العابد الزاهد ، معها ترتقي الروح ويسمو القلب في حضرة مالك الاكوان .

2.2 في تعريف الشعر الصوفي

" اذا كان الفن خبرة جمالية ونشاطا استيطيقيا ، فان الشعر ، هو ضرب من ضروب الفن يمتلك هذه القدرة الفذة في التعبير ، من خلال رموز استيطيقية تنفذ الى شفاف الاشياء " (جودة نصر، 1987، صفحة 105) ، من هذا الرأي الذي نستشف منه مكانة الشعر ضمن الممارسات الفنية ، كونه اقرب الاشكال التعبيرية للنفس الانسانية ، لامتلاكه لتلك القدرة العجيبة في تصوير الاحاسيس والعواطف المكبوتة ، من فرح او معاناة بصورة جمالية ، وبصور بديعية مجازية ، عبر تراكيب لغوية من الاشارات ورموز ، تخضع فيه لنظام الوزن والقافية ، مفسرا عما يختلج النفس من احوال .

والتجربة الصوفية باعتبارها هي الاخرى تجربة ذاتية تقوم على الذوق والوجدان تقترب من التجربة الشعرية " لما يحمله الشعر من خصائص الايحائية والرمزية ، والتلميح فيجعل لها مجالا واسعا فسيحا والشعر اكبر قدرة على تمثل معاناة الصوفية بإسرارها و غوامضها وكثافتها . حيث كان ظهور الشعر الصوفي معاصرا لظهور التصوف ذاته ، وقد عبر الصوفية الاوائل عن تجربتهم الروحية ، ومعاناتهم وحبهم الالهي شعرا . ومنذ فجر التصوف الى اليوم يبرز القالب الشعري عند الصوفية اثناء تعبيرهم عن المحبة الالهية ، اضافة الى ذلك ان العربي مطبوع على التعبير شعرا عندما يتعلق الامر بالأحاسيس والوجدان خاصة اذا ما تعلق الأمر بموضوع الحب " (طاهر، دن، صفحة 28) .

ليتحدد الشعر الصوفي هنا على انه شعر روحي وجداني ينطق بلغة الحدس ليخاطب صميم الذات الانسانية الساعية الى الوصل الالهي، حاول من خلاله الصوفي ترجمة كل افكاره ومشاعره ومجاهداته بطريقة فنية ، لا لشيء الا ليعبر به عن حرارة الشوق وفرح اللقاء ضمن انغام شعرية لتاتي عل هيئة ابيات وقصائد وصور بديعية فاتنة ليبلغ بها عن رسالة روحية هادفة تحاول ربط الخلق بالخالق ووصف الكيفية التي يكون بها في اسى تطلعاته.

3. عندما تعاش التجربة الدينية فنيا او في علاقة التصوف بالفن الشعري

يتسم التصوف بالنزوع الديني- ونقصد هنا التصوف الديني على حساب التصوف المطلق - ، الذي لم يخرج من اطار تعاليم هذا لآخر ، حيث كان التصوف يتلون بلون العقيدة الدينية للمتصوفة اذا سلمنا ان لكل صوفي طريقته الخاصة في العبادة على اساس تلك العقيدة ، وان كانت جميعها تتفق في الغاية الا وهي الوصول ، اي الاتصال الروحي بالذات العليا (حسين، 2017، الصفحات 15 - 16)، هاته النزعة التي لامست وجودها الاديان كلها على وجه التقريب ، اين نجد لها شطحات متنوعة في البوذية البراهمية و المسيحية وكذا اليهودية ، انبثق في نطاق الحياة الروحية للإنسان او الجانب الخفي منه ، والتي تراءت له ضمن ممارساته التأملية ، استجابة لحنين الروح الى مصدرها الاول ، وذلك عن طريق تصفية القلب من ادران المادة، وشوائب الحس ، والسيطرة على الجسد (عبد الحكيم، 1953، صفحة 22) ، ومنه التصوف ضمن هذا السياق ظاهرة لامست او رافقت الانسان منذ وجوده وعلى تعدد اشكال تدينه ، اين

خصت حياته الدينية بالأساس في اطار قدسي ضمن ماعبر عنه بالتجربة الروحية . لتأتي نتيجة حصيلة " تجربة بحث عن الاسرار الالهية في الكون ، اسرار الحياة والموت ، و النفس والروح ، والعقل والقلب ، وهي تجربة مختلفة في علاقة بين الذات الفردية للصوفي والذات الكلية للمطلق ، تجربة انعقاد من الاعراف وتجاوز للحدود يختبر فيها الصوفي الانفصال عن عالم الارض و الانسان والاتصال بعالم السماء " (حماد، 2014، الصفحات 2- 3).

الا ان ما يستثير اهتمامنا أكثر وبصورة ادق فيما تعلق بالصوفية ضمن ماتم التأسيس له من قبل الديانة الاسلامية وان اتفقت الاراء واجتمعت حول حقيقة مفادها ان جذوره الاولى متأصلة ومتعايشة مع الحياة العربية الاسلامية ، منه ظهر وتكون وتطور ، خاصة وان دين الاسلام بما يقره عليه تعاليم القران والسنة كان الدافع الاول لاستقرار اسم الصوفية ، كونها نشأت منه واليه ، بما هي خادمة له بإعلاء اسم الربوبية ووحداية الله وتحقيق عبوديته .

فما يميز التجربة الصوفية ضمن ممارساتها الدينية هو ان " التجربة الصوفية في جوهرها محاولة لتجاوز التجربة الدينية العادية ، تلك التي تقتنع بالعادي المألوف من مظاهر التصديق و الايمان ، وتقتصر على مجرد الوفاء بالتكاليف الشرعية والامتناع عن المحرمات الدينية ، او ما يسمى الوفاء بمتطلبات الشريعة والوقوف عند حدودها ورسومها ، فالصوفي هنا يطمح ان يتجاوز حدود الايمان ، للدخول في تخوم الاحسان والذي قاعدته ، بان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فهو يراك " (ابو زيد، دن، صفحة 1).

التجربة الدينية الخاصة بالمتصوفة ، تجربة روحية راقية وسامية تفوق تجربة العابد في بساطتها، بحيث يسعى من خلالها الصوفي بلوغ احوال الكشف والتجلي والمشاهدة ، حبا لذاته بعيدا في ذلك عن فرض التكليف والطاعة .

ولما كان التصوف الذي بدا " كنتيجة طبيعية لتطور حياة الزهد وميل المسلمين نحو الانقطاع الى الله ، بعيدا عن حياة البذخ والترف وتفان الحياة المادية التي شهدتها العصر العباسي بخاصة ، اين رأوا الزهاد بأنهم أصبحوا غرباء في هذا الواقع ، فبدوا ينحون بعيدا عن المجتمع ويكونوا طائفة منعزلة همها الوحيد الخلاص من الاثام " (العبيدي، 2016، صفحة 2)، للتولد في اعماق الصوفي احساسا بالاغتراب عن هذا العالم وعن الذات نظرا لما استشعره فيه من نقص ونشاز وقبح بعيدة عن روح الاسلام وحقيقته ، وغياب المثل و الاخلاق العليا ، فمن هذا الواقع المختل راح الصوفي يبحث عن الاستقرار والانسجام داخل اعماقه حتى يكمل ذلك النقص . لكنه بدلا من ان يلتمس داخل الواقع نفسه ويسعى الى تغييره اجتماعيا فانه اغضض الطرف عنه لينحني بالملائمة على نفسه يتخذ ذاته الفردية بديلا عن واقعة الاجتماعي (حماد، 2014، صفحة 4).

فهذه الاثار وما الى غير من اسباب وظروف سياسية كانت او فكرية ، طرأت من خلالها تحولات وتغيرات انعكست بدوره على الادب الصوفي ، ولاسيما في الفن الشعري ، حيث ان الشعر الصوفي كان من

جانب اخر ، تحولوا لشعر التدين الاسلامي الذي وقف في نقل معاناة تأملية مجردة تجري في دواخله (العبيدي، 2016، صفحة 2).

لنتلازم التجربة الشعرية مع التجربة الصوفية ، ليكون الشعر اقرب الى تمثل التجربة الروحية الوجدانية ، "فالفن الشعري عند المتصوفة تصوير بكينونة الكلمة ، في هذا الوجد القولي يعرف المبدع قداسة تصويره الفني" (ابوزيد، 2014، صفحة 8).

هذه الكلمة التي ينحت من خلالها الصوفي كلمات وإشارات يمكنه من تمثل تجربته الجمالية .

لنتساءل ضمن هذا السياق عن علاقة التجربة الصوفية بالتجربة الشعرية ؟

يقر صلاح عبد الصبور ان " النفس الانسانية في احساساتها المختلفة لم تكن لتدرك نفسها لولا الفن " (عبد الصبور، 1977، صفحة 66)، وهذا ما نلاحظه تماما على التجربة الشعرية الصوفية التي تنبثق من ذات مبدعة ، فهي كتجربة ذوقية لامست الحس الفني ضمن ممارسات شعرية ، ليلتقى معها الدين والفن عبر مزيج جمالي ساحر ، فكلاهما " اي الفن والدين نشاط روحي يقوم على العاطفة ويأبى ان التقيد بقيود المنطق العقلي الضيقة ، فهما يضيئان مشكاة واحدة هي ذلك القبس العلوي الذي يملا قلب الانسان الراحة والصفاء الذهني" (عبد الحكيم، 1953، صفحة 76) ، وكيف لا يتقارب الفن مع الدين وهو في حضرة مالك الجمال الذي لا يصدر منه الا جمالا فأبصرت الصوفية العالم بأسره بنظرة فنية جمالية ، فغنت اشعارا وأطربت الحانا وتراقصت الاجساد ، كلون من الوان الاستجابة للإرادة تصف وتعبر بها الروح عن شوقها الدفين.

فالنص الصوفي مثل النص الشعري ، يتميز بصدق التجربة لكونهما وليدة معاناة ، ذلك ان الصوفي عاشق ينفس عن مشاعره بكلمات تنسم بالرمزية تفرضها طبيعة المعاني الروحية ، ومنه " التجربة الشعرية عند المتصوفة ذات طبيعة خاصة ليس من اغراضها قضية التواصل والتوصيل بالمعنى المفتوح ، بل الدافع الاساسي هو التعبير عن معاناة من نوع ما ، ضمن ما عرف عندهم ، " ما يدرك ولا تحيط به الصفة " (الكندي، 2010، صفحة 81) . غير ان الشاعر قد لا يكون متصوفا او يلزمه ان يكون كذلك ، لكن الصوفي لا يبعد ان يكون شاعرا ، " فالصوفي شاعر سواء نظم القول او نثره فأداة الادراك عنده هي نفسها اداة الادراك عند الشاعر ، والوسيلة التشبيهية التي يستخدمها في اداء ما يؤديه نفسها وسيلة الشاعر ، فالشاعر يمنح من الباطن مثله مثل الصوفي ". (منصور، 1999، صفحة 24).

ولعل هذا الترابط الظاهر المعلن بين التصوف والشعر نلاحظه اكثر وبصورة ادق في قصائد المتصوفين الشعراء الكبار ، امثال : رابعة العدوية ، الحلاج ، وابن عربي... وغيرهم ، التي استقرت احوالهم ومقاماتهم التي جادوا وافنوا بالتعبير عنها بكلام موزون مقفى، وبلغه مجازية تحوي على تشبيهات وجناس ، وطباق ، وسجع... امتزجت كلها في حلة بهية عبر نسيج من ابيات شعرية ، باقاع موسيقي رنان ، المتناسقة تناسقا تاما تراءت للسامع والناظر و كأنها وحي الهي ، وكيف لا يكون هذا الجمال وهذا التفن

في التعبير وهو يصف حالة الحب الالهي، اين نستدل هنا بما تغنت به شهيدة العشق ، رابعة العدوية في ابياتها المشهورة ضمن قصيدة احبك حبين :

احبك حبين حب الهوى وحباً لأنك اهل لذلك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواك
واما الذي انت اهل له فكشفك لي الحجب حتى اراك
(مبارك، 2012، صفحة 275)

ولوعة الحلاج التي جاءت في الابيات التالية :

ولله ما طلعت شمس ولا غربت الا وحبك مقرون بانفاسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش الا رأيت خيالاً منك في الكاسي
والشاعر المحب ابن الفارض الملقب بسُلطان العاشقين :
كل من في حماك يهواك لكن انا وحدي بكل من في حماك

وقوله أيضا :

قلبي يحدثني بانك متلفي روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم اقض حق هواك ان كنت الذي لم اقض فيه اسي ومثلي لم يفي
مالي سوى روحي اباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد اسعفتني يا خيبة المسعى اذا لم تسعف
(مبارك، 2012، صفحة 293)

هذا الحب الذي جعله حقيقة سرمدية وطريق بين لا عدول فيه :
وعن مذهب الحب مالي مذهب وان ملت يوما عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك ارادة على خاطري سهوا قضيت بردتي
لك الحكم في امري فما شئت فاصنعي فلم تك الا فيك لاعنك رغبتني
(بركات، دن، صفحة 296).

4. جماليات اللغة الصوفية في الممارسات الشعرية

تختلف استخدامات اللغة في الممارسات الشعرية عن الاستخدام العادي و المألوف لها ، بين لغة العموم التي تكون لغاية التواصل المباشر ، وبين لغة الخصوص التي هي لغة الفنان الشاعر ، ففي رأي محمد علي الكندي " ان اللغة الشعرية تتميز بالاستعمال الخاص للغة ، اذ ينحرف المبدع بلغته قليلا او كثيرا عن الاستعمال الوظيفي المعياري لها ، يخرج بها عن دوائر المواضعة بمعالجتها بطريقته الفنية الخاصة " (الكندي، 2010، صفحة 79)، فالنص الشعري يأتي تميزه عن باقي النصوص كونه يحاول الافصاح عن عوالم داخلية من مشاعر و احساس يسقدم من خلالها الشاعر رؤية ما للعالم ، فتاتي صياغته اللفظية بشكل مختلف عما هو سائد متداول ، فيكسر بها رتم اللغة المبتدلة ليحاول صناعتها

من جديد على حسب ما تقتضيه الدواعي ، فاللغة الشعرية لغة تصنع وتبدع ، وهذا ما اكده ريفاتير في قوله : " حقيقة ان الشعر كثيرا ما يوظف كلمات لا ترد الى الكلام العادي وغالبا ما تتميز بنحو خاص فالألفاظ التي نجدها في الشعر تكون بعيدة عن الاستعمال العادي ، نسيج تركيبى متميز ، من جهة يحترم القوانين اللغوية ، ومن جهة اخرى يمارس حريته في حدود ما تسمح به هذه اللغة " (طاهر، دن، صفحة 58).

ذلك ان الشاعر وهو يعايش التجربة يعاني مخاض التعبير عنها ، بكل ما من شأنه أن يوسع طاقات اللغة ، ويضاعف قدرتها على التعبير ، فهو ينحرف باللغة عن استعمالها المعجمية التواضعية لتكون اكثر قدرة على اليعاء ، فهو يتحرك ضمن التراكيب والألفاظ اللغوية بمزاجية على حسب وما يتوافق والتجربة ومعطياتها ، من هذا التشكيل الفني الخاص تكتسب الالفاظ والتراكيب دلالات ومعاني جديدة اذا لا يمكن للشعرية ان تظهر اذا حافظت الالفاظ والتراكيب عن معانها بل لا بد لها ان تتخلى عن شيء من معانها ومدلولاتها (الكندي، 2010، صفحة 80).

ولعل هذا الراء تتماشى الى حد ليس ببعيد مع تجربة الشعر الصوفي ، فالشعر كما ذكرنا سابقا هو عزاء الصوفي والحبل الوحيد الذي يعتصم به في رحلته الروحية لتتحول تجربته اللغوية مكفئا لتجربته الصوفية ، كونها تجربة شعورية متفردة ومختلفة عن العادية ، اذ هي تحتاج بدورها الى لغة قادرة عن وصف وتصوير تلك المعاني الربانية التي يعيشها الصوفي ، فكان للرمز المجال الرحب الواسع ، الذي استطاع بفضلله تأويل تلك العلاقة الجامعة بين الذات الانسانية والذات الالهية ، ذلك " ان الصوفي في تجربته ، يعبر بالمحسوس عن اللا محسوس ، فهو يخوض في عالم يصعب وصفه ، ويصعب التعبير عنه بلغة عادية بل يستوجب لغة تتماشى مع هذا العالم الذي يشاهده وحال النشوة التي يعيشها ، فوظف الشاعر الصوفي الرمز كمعادل موضوعي لتلك الحال ، حال الوجد والحزن والقبض والبسط الى ان يصل الى مراده " (حماد، 2014، صفحة 4).

فالجانب الروحي الذي سعت اليه الصوفية الى ادراكه ومعايشته واستعبابه ، كان الدافع وراء نبشها عن كل الوسائل المتاحة لذلك فوجدت في الشعر ضالتها ، الذي رات منه اقوى وسيلة لغوية استوعبت تلك اليعاءات الرمزية التي رافقته عبر مسيرته الجهادي. فاصطناعه للأسلوب الرمزي فرضته الضرورة الاحتياجية لذلك بحيث "لم يجد طريقا اخراممكننا يترجم به عن رياضته الصوفية التي به عبر عن محبته الالهية ، التي تختلف بدورها عن المحبة العادية ، اذا ان الشاعر الصوفي في رمزيته يكون بليغا مؤثرا ، فالرمز اداة العقل حيث يثير فيه الخيال ويهز به القلب تحيل بينه وبين المعنى المراد الافصاح عنه الا وهو الحب الالهي " (قايد سلمان، 2007، صفحة 9) .

ولعل اشهر الرموز التي استعانت بها الصوفية في اشعارها: رمز المرأة ، الطبيعة ، الخمر ، رموز الاعداد والحروف... وغيرها ، نستدل باحد ابرز الرموز واشهرها الا وهي رمز المرأة والخمر .

رمز المرأة كان لدى الصوفية من اوفر الرموز استعمالا وتداولاً في اشعارهم ، وفيه بدت المرأة رمزا موحيا دالا على الحب الالهي ، اذ يجب التنويه ان الشعر الصوفي من هذه الوجهة شعرا غزليا تمت فيه الصوفية مزج و تأليف بين الحب الالهي والحب الانساني ، والتعبير عن العشق في طباعة الروحي من خلال اساليب غزلية موروثية عن الشعر الغزلي الجاهلي (جودة نصر، 1987، الصفحات 162 - 163) ، اين نستدل هنا بأبيات من قصائد ابن عربي الغزلية التي تهيب بلغة العشاق العذريين في صياغة رمزية موحية :

سلام على سلمى ومن حلّ بالحَمَى وَحُقْ لِمَثَلِي رَقَّةً ان يُسَلِّمًا
وماذا ان ترد ... تحيية علينا ولكن لا احتكام على الدَّمَى
سروا وظلام الليل ارحى سدوله فقللت لها صبا غريبا متيما
احاطت به الاشواق صونا وارصدت له راشقات النبل ايان يمما
وقالت اما يكفيه اني بقلبه يشاهدني في كل وقت .. اما اما ؟
(جودة نصر، 1987، صفحة 199).

اما رمز الخمرة فله هو الاخر وضع متميز في تراث الصوفية اذا كانت تعبر لديهم عن حالة الوجد، والحب الذي يصل بهم الى غاية السكر ، والتي اشتهر بها ابن الفارض ، " فالخمر في شعره رمز عن المحبة الالهية ، بوصفها ازلية قديمة منزهة عن العلل المجردة ، وهذه المحبة في الاسرار العرفانية هي التي بواسطتها ظهرت الاشياء وتجلت الحقائق واشرقت الاكوان ، وهي الخمر الازلية التي شربتها الارواح المجردة فانثشت وأخذها السكر و استخفها الطرب على حد قوله :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم
لها البدر كاس وهي شمس يديرها هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم
(المرجع السابق، 1987، صفحة 366) .

انت هذه الابيات وما الى غيرها التي عبر بها الصوفية عن وعيهم الداخلي بلغة رمزية شعرية ، اين تعددت وتنوعت اشكال الرموز فيها ، بتعدد مواضعه وبواعثه ، بحيث لجا اليها الصوفي قصدا ، نظرا لطبيعة التجربة التي يخوضها ، ومدى صعوبة التعبير عنها بحروف العبارة العادية لضيقها واستحالة استيعاب المعنى العميق الباطن المتوخى من ورائها ، لاحتوائها على اسرار روحية ومعاني ربانية ، فجاء الرمز مضمرا المعنى متخفيا ، غامضا الفهم لا يعرف كنهه الا الصوفي المتذوق للجمال ، الذي اسقطه على القصيدة الصوفية لتتميز عن بقية القصائد الشعرية لتاتي ضمن قول بديع ولفظ جميل وبناء رصين ، لعله يصل بها الى الجمال المطلق في ذاته وبذاته .

5. خاتمة:

انطلاقاً مما تناولناه سابقاً ، حول اشكالية تلاقي القول الديني بالعمل الفني الجمالي اين حاولنا من خلال هذه الدراسة الى ابراز ملامح التعايش والتآلف بين تجربة المجاهد الصوفي و الفنان لشاعر ، لناتي في محصلة هذا العرض الى النتائج التالية :

ان هدف الصوفية هو الوصول الى الحق المطلق والاتحاد به ، ولا يصل الصوفي الى هذا المقام ، الا بمجهود شاق وطويل ، يركز فيه على اماتة الرغبات وكسر شرة النفس. ليصل عبر رياضته الروحية الى ملامسة حضرة مالك الاكوان ، لتطرب بمعيتها الذات شعراً . اين وجدت الصوفية في الشعر المجال الخصب للتعبير عن مواجيدهم ، والتكلم عن احوالهم بحس فني جمالي ، والتي لم يعبروا عنها الا بالصورة التي تناسب منهجهم ومسلكهم ، فأوجدوا عبر رحلتهم لغة خاصة بهم الا وهي لغة الرمز و الاشارة والخيال ، اين استطاعوا من خلالها تنظيم قصائد مجازية تشبيلية تقارب و تلامس ما تكنه النفس . لتاتي في محصلة اللقاء بين العمل الفني للشاعر والحالة الروحية للصوفي ، كحالة شعورية واحدة نابغة من اعماق الذات مع اختلاف في مقامات الاحاسيس ، بين معاش للواقع بأفراحه وأحزانه وبين مترفع عنه .

6. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- 1- ابراهيم محمد منصور، (1999)، *الشعر والتصوف* ، القاهرة ، دار الامين للنشر والتوزيع .
- 2 - حسان عبد الحكيم ، (1953)، *التصوف في الشعر العربي*، مصر، مكتبة انجلو .
- 3 - رفيق العجم. (1999)، *موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي*، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.
- 4 - زكي مبارك، (2012)، *التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق*، مصر ، مؤسسة هنداوي.
- 5 - صلاح عبد الصبور، (1977)، *حياتي في الشعر* ، بيروت ، دار العودة.
- 6 - عاطف جودة نصر، (1987)، *الرمز الشعري عند المتصوفة* ، بيروت ، درا الاندلس.
- 7 - عبد لله حسين، (2017)، *التصوف والمتصوفة* ، المملكة المتحدة ، مؤسسة هنداوي.
- 8 - محمد علي الكندي، (2010)، *في لغة القصيدة الصوفية* ، لبنان ، دار الكتاب الجديد .
- 9 - محمد مراد بركات، (دن)، *الامير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي*، مصر ، دار النشر الالكتروني.
- 10 - نصر حامد ابو زيد ، (2014) ، *النص و السلطة و الحقيقة* ، المغرب ، المركز الثقافي العربي.

• الأطروحات

- 1 - بولعشار مرسلي، (2015)، اطروحة دكتوراه بعنوان : الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية المعاصرة ، قسم الادب العربي ، كلية الاداب والفنون ، جامعة وهران ، الجزائر.
- 2 - نادية طاهر، (دن)، اطروحة دكتوراه بعنوان : الخصائص الاسلوبية في شعر محي الدين بن عربي ، قسم اللغة والادب العربي ، كلية الاداب والفنون ، جامعة مستغانم ، الجزائر.

• المقالات

- 1 - حمزة حماد، (2014)، الرمز بين الرؤية والابداع الفني، مجلة جامعة ايلول ، تركيا ؛
- 2 - صلاح حسون جبار العبيدي، (2016)، الالغاز في الشعر الصوفي ، مجلة القادسية للعلوم الانسانية ، المجلد التاسع عشر ، العدد الثالث ؛
- 3 - مراد قايد سلمان، (2007)، الشعر الصوفي الشعبي، مجلة الاداب واللغات ، العدد السادس، الجزائر؛
- 4 - نصر حامد ابو زيد، (دن) مقالة بعنوان ، اللغة ، الوجود ، القرآن دراسة في الفكر الصوفي ؛
- 5 - هيام سلامة، (دن)، التصوف واثره على الفن الاسلامي، مجلة العمارة والفنون ، العدد السابع، دمشق؛